جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي
معهد العلوم الإسلامية
قسم الحضارة الإسلامية

محاضرات في مقياس الأسلوبية وتحليل الخطاب

سنة ثانية ماستر

تخصص اللغة العربية والدراسات القرآنية

الدكتور علي زواري أحمد

الموسم الجامعي: 1442هـ-1443هـ/2020م-2021م

المحاضرة الأولى

نشأة الأسلوبية وأهم روادها

في هذه المحاضرة الأولى نتكلم عن عنصرين مهمين نمهد بهما للحديث عن الأسلوبية وما يتعلق بها من موضوعات. وهذان العنصران، هما: نشأة الأسلوبية، وأهم روادها.

أولا – نشأة الأسلوبية

الأسلوبية علم حديث في نشأته، مجاله اللغة، ويدرس ويحلل النصوص اللغوية، وهو مستقل بذاته له مناهجه واتجاهاته ورواده ومؤلفاته، وأول من نبه عليه العالم الفرنسي جوستاف كويرتنج عام 1886م في قوله: «إن علم الأسلوب الفرنسي ميدان شبه مهجور تماماً حتى الآن.. فواضعوا الرسائل يقتصرون على تصنيف وقائع الأسلوب التي تلفت أنظارهم طبقا للمناهج التقليدية .. لكن الهدف الحقيقي لهذا النوع من البحث ينبغي أن يكون أصالة هذا التعبير الأسلوبي أو ذاك، وخصائص العمل أو المؤلف التي تكشف عن أوضاعها الأسلوبية في الأدب».

ويرى الدكتور نور الدين السد أن أول من أطلق مصطلح (الأسلوبية) على دراسة الأسلوب العالم (فون درجيلنتس)سنة 1875م(24). إلا أن هذه الروايات لا تختلف في كون العالم والأديب (بيفون Buffon) 1707–1788م هو أول من أهتم بظاهرة الأسلوب عند الكاتب في مقولته المشهورة (الأسلوب هو الرجل نفسه) وقرنها بشخصيته وكان له بذلك مؤلفه المشهور (مقالات في الأسلوب) سنة 1753م.

ونظرا لارتباط الأسلوبية بالبحث اللغوي وتطوره بقيت غير محددة المعالم والمبادئ إلى بدايات القرن العشرين وهو تحديد مرتبط بشكل وثيق بأبحاث علم اللغة رغم ظهور الأسلوبية المبكر خلال القرن التاسع عشر.

فالأسلوبية ارتبطت في نشأتها بنشأة علم اللغة الحديث، فهي وليدة علم اللسانيات لصاحبه فرديناردي سوسير (1857– 1913م) – ومستفيدة من آلياته وتقنياته وإلى اليوم – ولهذا فإن مصطلح الأسلوبية لم يظهر إلا في بداية القرن العشرين مع ظهور

الدراسات اللغوية الحديثة التي قررت أن تتخذ من الأسلوب علماً يدرس لذاته، أو يوظف في خدمة التعليل الأدبي، أو التحليل النفسي أو الاجتماعي، تبعاً لاتجاه هذه المدرسة أو تلك.

يقول إبراهيم عبد الجواد: «والدافع الحقيقي لنشأة الأسلوبية يكمن في التطور الذي لحق الدراسات اللغوية، وتكاد الدراسات العربية تجمع على أن نشأة الأسلوبية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا التطور، وتعده أساس الدراسات الأسلوبية. وإذا آمنا بأن الأسلوبية جاءت وليد التطور الذي لحق العلوم الثلاثة: النقد والبلاغة واللغة، فإننا نؤكد أن نشأة الأسلوبية لغوية، ولا سيما التطور في مجال الدراسات الأدبية».

ثانيا – أهم رواد الأسلوبية

1 – أهم الرواد الأسلوبيين الغربيين.

ومن أهم الرواد الأوائل الذين ساهموا في بناء هذا البحث النقدي الأسلوبي في أوربا طائفة من النقاد الدارسين والمنظرين ومنهم:

شارل بالي (Chares Bally) 1865م – 1947م:

يعتبر هذا اللساني السويسري من المؤسسين الأوائل لعلم الأسلوب سنة 1909م تاريخ صدور كتابه الأول(في الأسلوبية الفرنسية)، إذ يرى في الأسلوبية ذلك البحث الذي يعني بدراسة قضايا التعبير عن قضايا الإحساس والكلام، وهي بذلك تدرس وقائع التعبير اللغوي من جهة مضامينها الوجدانية أي (تدرس تعبير الوقائع للحساسية المعبر عنها لغويا، كما تدرس فعل الوقائع اللغوية على الحساسية)، ثم جاء من بعده أتباعه وتلاميذه الذين ساروا في اتجاه الأسلوبية التعبيري، وانصبت جهودهم في تحقيق دور الأسلوبية في الكشف عن خصائص التعبير رغم الاختلافات البسيطة بين آرائهم، وتركيزهم على العناية بخصائص التعبير الجمالية في النصوص الإبداعية المقصودة، ومن هؤلاء (مارسيل كرسيو) و(جول ماروز)، وهما من رواد هذا الاتجاه ومن المناصرين الأوائل لفكرة التخلي عن لغة النصوص المحكية أو اللغة الفطرية.

ليوسبتزر (Léospitzer) 1887–1960م:

أضاف هذا اللساني على فكر (شارل بالي) البحث في الوقائع الأسلوبية من جانب الإحساس وجانب الفكر، وحدد الأسلوب بإنزياحه أو عدوله عن المعيار السائد في الفترة الزمنية المحددة، وحاول التركيز من خلال الأسلوبية على صاحب الأسلوب في انطباعه الشخصي وكذا النفسي، وإذا أغرقت تحاليله الأسلوبية في الجوانب النفسية المتصلة بالكاتب ذاته، وهو ما أدى فيما بعد إلى ظهور منهج خاص في الأسلوبية.

ميشال ريفاتير (M. Reffatere):

اهتم هذا اللساني من جامعة كولومبيا بأمريكا ومنذ العقد الخامس من القرن الماضي بالدراسات اللسانية والأسلوبية، وأبرز دور الأسلوبية كبحث جدي وموضوعي في إبراز شعرية النصوص ،رغم ولوعه بالمنهج البنائي الذي أفاد التحليل الأسلوبي، وقد ركز هذا الأخير على دور القارئ المتميز في فهم الطاقات الأسلوبية المودعة في الخطاب الأدبي، ويرى الأسلوبية ذلك العلم الذي يهدف إلى الكشف عن العناصر المتميزة التي يستطيع بها الكاتب (... مراقبة حرية الإدراك لدى القارئ المتقبل، والتي بها يستطيع أيضا أن يفرض على المتقبل وجهة نظره في الفهم والإدراك فتنتهي إلى اعتبار الأسلوبية (لسانيات) تعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين وإدراك مخصص).

وقد اعتمد في تجسيد هذه السمات الأسلوبية التي تنتقل إلى القارئ العمدة عبر التطبيقات البنائية الموضوعية التي حاولت أن تتخذ من خلاله منهجا، أو مدرسة أسلوبية كان لها صدى كبير في إجراءاتها وتحاليلها البنيوية.

رولاند بارت (Roland Barthes) 1915-:

لساني فرنسي عمل على إرساء قواعد نقد حديث ،وحاول في كتابه (الدرجة الصفر في الكتابة) سنة 1953م وضع فاصل بين اللغة والأسلوب، ويرى أن الأسلوب بمثابة الشعاع ولا يستطيع القبض عليه، ومنه نستعين بهذا التفرد في الأسلوب بدراسة الأسلوبية القائمة على الإحصاء لإبراز ما فوق الصفر، أو ما يسمى بـ (التجاوز).

تازفيان تودوروف (Tzvetan Todorov) 1939- :

لساني بلغاري الأصل فرنسي الجنسية، وباحث في الأسلوبيات، ومن المهتمين بالخواص الجمالية ضمن الخطابات الأدبية، ولقد تركزت بحوثه في ميدان الشعرية (Poétique) وحاول بيان تطبيقاتها، وتحديد معالمها رغم هذا الترابط الشديد بينها وبين الأسلوبية، إذا يرى في الأسلوبية منهجا خاصا، ولخصها في اتجـاهين أو منهجين هما أسلوبية (شارل بالي) وأسلوبية (ليوسبتزر).

رومان جاكسون (Roman Jakobson) 1896-1981م:

لساني روسي ومن المؤسسين الأوائل لمدرسة الشكلانيين الروس، أسهم في بلورة الفكر الأسلوبي، ولم يغفل دور الأسلوب في الخطاب الأدبي بوصفه مقوما أساسا في الوظيفة الشعرية، ونادى بمد جسر بين الدراسات اللغوية، والنقد الأدبي بالدراسة الأسلوبية ، كما أنه أهتم بنظرية النظم عند العلامة(عبد القاهر الجرجاني) وأعاد صياغة التصورات البلاغية القديمة، ووصفها وصاغها على ضوء علم اللغة الحديث ونظريات السيميولوجيا. وهو بذلك يضع مفهوما للأسلوبية فيصفها بالبحث الموضوعي عما يتميز به الكلام الفني عن بقية الخطابات والمستويات أولا ثم عن سائر أصناف وأشكال الفنون الإنسانية ثانيا. ولم يستبعد بذلك كون الوظيفة الشعرية التي دعا إليها هي في حقيقة أمرها وظيفة أسلوبية بحتة تسعى إلى تحقيق أدبية النص، ومنه تكون الأسلوبية بحثا خاص يهدف إلى إبراز خصوصية النصوص من خلال إبراز الوظيفة الشعرية فيها.

بيار جيرو (P.Guireau):

قسم الأسلوبية المعاصرة إلى اتجاهين متخالفين، وهما الأسلوبية النقدية ويقودها (شارل بالي)، والأسلوبية الجديدة أو الحديثة والتي تتصل بالبنيوية عن طريق (جاكبسون)، وكلاهما يريان في الأسلوب الشكل المتميز للنص المدروس، ويختلفان في أن الأول يقيدها بالرمز، أو الشفرة والثاني يقيدها بالبنى الداخلية (الرسالة).

2 – أهم الرواد الأسلوبيين العرب.

يبدو أن تيار الأسلوبية بدأ في المغرب والجزائر وتونس وفي وسورية كمال أبو ديب، ثم أنتقل إلى المشرق العربي، وقد مثل كل دولة مجموعة من الباحثين العرب، ففي السعودية الدكتور عبد الله الغدامي الذي تتلمذ على يد الدكتور سعد مصلوح، وفي تونس د. عبد السلام المسدي وفي مصر طائفة من الباحثين صلاح فضل، محمد عبد المطلب، شكري عياد، عبد المحسن طه بدر، أحمد درويش، محمد السعران. وفي الأردن خليل أبو عمايرة. وفي المغرب محمد الهادي الطرابلسي. أما في الجزائر الدكاترة عبد الملك مرتاض، نور الدين السد.. .

د.عبد السلام المسدي:

اتسمت بحوثه الأسلوبية ومصنفاته بالبحث عن نقاط التكامل، والتواشج بين المنحى الجمالي والمنحى الموضوعي العلمي إلا أن تحاليله نزعت إلى روح التجريدية العلمية أكثر من الرصد والكشف الجمالي، ويعتبر المسدي من الباحثين الأوائل الذين روجوا لمصطلح (الأسلوبية) كما لم يغفل اعتماد مصطلح (علم الأسلوب).

كما أنه لم يمل إلى منهج معين لذاته في تحليليه الأسلوبي بل مزج بين المقولات الأسلوبية ومعطيات علم النفس. ودعا إلى ضرورة إغناء العمل الأسلوبي بالفحص النقدي النظري، والمراجعة التطبيقية للوصول إلى تخليص المعارف، وتمحيص المفاهيم، كما ألح على ضرورة الحذر والحيطة المسبقين في اختيار الخطوة الأولى للولوج إلى العمل النقدي ذي الطابع الأسلوبي.

د.صلاح فضل:

رائد من رواد البحث الأسلوبي في المشرق العربي، عكست إنتاجاته اهتمامه الخاص بالبحث في مجال هذا العلم وسعيه الدؤوب لوضع أسس علمية وجمالية لأسلوبية عربية قادرة على إثبات وجودها أمام المد المتصاعد للتيارات النقدية الوافدة من الغرب، والتي لا تتلاءم بعضها مع طبيعة النص الأدبي، ومن أهم آرائه في هذا المجال تفضيله لاستخدام مصطلح (علم الأسلوب) بدل الأسلوبية لأن علم الأسلوب هو جزء لا يتجزأ من علم اللغة العام. كما أطلق كذلك على اجتماع الأسلوب والشعرية معا مصطلح

(علم الأسلوب الشعري) في بحث واحد وهو لا يغفل المواشجة بين المراحل النصية والسياقية. كذا الظواهر الجمالية أثناء التحاليل الأسلوبية للنصوص الشعرية وأساليبها بشرط احترام خصوصيات النص الأدبي العربي.

د. سعد مصلوح:

اعتمد هذا الأخير مصطلح (الأسلوبيات) الموافقة لما جاء على لسان السلف على وزن (الطبقات، الرياضيات)، كما يرى هذا المصطلح يتفق حديثا مع مصطلح (اللسانيات) إذا يعتد بهذا العلم (علم الأسلوب) ولا يعده منهجا لأنه يظم عدة مناهج بداخله.

د. شكري محمد عياد:

اجتهد في تقسيم وتفريع الأسلوبية إلى وجهين رئيسين:

- علم الأسلوب العام: وهو علم يهتم بالخصائص الأسلوبية التعبيرية في اللغات عموما كالمجاز وغيرها.

- علم الأسلوب الخاص: يعني بميزات أسلوبية تعبيرية خاصة بلغة ما معينة، وهو في موقف أخر يدعو إلى الاعتداد بالبلاغة العربية وما قدمته للبحث الأسلوبي الحديث في دراسة القيم التعبيرية والاستفادة من الدراسات اللغوية الحديثة في إرساء علم الأسلوب العربي.

د. نور الدين السد:

أبدى اهتماما كبيرا للأسلوبية ومنهج تحليل الخطاب من خلال كتابه (الأسلوبية وتحليل الخطاب) سنة 1997م، والذي كان بمثابة دراسة بيليوغرافية لمختلف الدراسات السابقة وخاصة العربية منها إلى جانب بعض الاختلافات الجوهرية لها، وحاول عرض هذه التجارب عرضا ملخصا أورد فيه أهم إيحاءات هذه التحليل وما أضافته للبحث الأسلوبي مع الفروقات الجوهرية بينها، ومن آرائه في هذا المجال وصفه للأسلوب بأنه.

المحاضرة الثانية

مفهوم الأسلوب والأسلوبية (1)

ومصطلح الأسلوبية المترجم من الكلمة الفرنسية (stylistique) يتكون من جذرين؛ (Styl) وهو الأسلوب، ولاحقه (tique) وهي التي تعطي البعد العلمي للفظ، والأسلوبية في أصلها اللغوي مصدر صناعي من الأسلوب، لذلك لا يمكننا أن نفهم الأسلوبية إلا من خلال حديثنا عن الأسلوب.

أولا – مفهوم الأسلوب

1 – الأسلوب في اللغة:

لقد اختلفت التعريفات اللغوية لكلمة "أسلوب" وذلك لتعدد معناها واختلاف استعمالاتها ، ونبدأ بما ذكره ابن فارس (المتوفى: 395هـ) في أصل هذه المادة، حيث يقول: «السين واللام والباء أصل واحد، وهو أخذ الشيء بخفة واختطاف».

ويقال للسطر من النخل: أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب.

ويقال: إن كل شيء امتد من غير اتساع فهو: أسلوب.

والأسلوب: الوجه والطريق والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب شر، ويجمع أساليب. والأسلوب: الطريق تأخذ فيه. وقد سلك أسلوبه: طريقته. وكلامه على أساليب حسنة. والأسلوب بالضم: الفن؛ يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه.

فمن خلال هذه التعريفات اللغوية لكلمة "الأسلوب" نستشف مدى الارتباط الوثيق بينها وبين الأسلوب في الكلام، ونلحظ ذلك ابتداء من كلام ابن فارس حيث بيّن أن أصل المادة (س ل ب) تعني : «أخذ الشيء بخفة واختطاف» ، وهو ما يحدث عند المتكلم، حين يريد الكلام ليعبر عن أفكاره وأغراضه، فإنه يختطف الألفاظ بكل خفة وسرعة من قاموسه اللغوي في زمن قياسي يسير ليركب بها بنية متكاملة منتظمة مترابطة العلاقات بين وحداتها من خلالها يتشكل أسلوبه وتحمل دلالات مختلفة سطحية وعميقة تتناسب وما يقتضيه السياق والحال.

وسطر النخيل: يدل على الاستقامة والاستمرار. وهذا هو حال الكلام يشبه السطر من النخيل، فالكلمة تتلوها الأخرى، والجملة تتبعها الثانية، فيتشكل الكلام ويستقيم معناه فيؤدي المقصود منه.

والطريق الممتد، وهذا يعني:

أولا . هو امتداد في المكان.

وثانيا . هو وسيلة إلى الهدف المقصود . أو هو : "طريقة الوصول إلى المطلوب".

وعليه فالأسلوب امتداد في النص حتى غلب عليه، وهو وسيلة أو طريقة للوصول إلى الغرض الذي يريده صاحبه.

والوجه والمذهب، فنقول: "سلكت أسلوب فلان" أي مذهبه ووجهته، ومن هنا كان إطلاقه على مذهب المؤلف أو الكاتب أو المتكلم في تنسيق أفكاره والتعبير عن وجهته.

وهو الفن: ولا ريب أن كل علم فن من الفنون يتميز عن غيره، وكل علم يتكون من فنون مختلفة من الموضوعات تتميز عن بعضها البعض، والأساليب فن من الفنون تتميز عن بعضها البعض، وهذا ما ذهب إليه بعض البلاغيين لتمييز بين فنون البلاغة، ومنهم السِّجلماسيّ؛ حيث جعل كل فن بلاغي أسلوبا يتميّز عن غيره من الفنون الأخرى.

فهذه الأمور جميعا . كما رأينا . مترابطة، وبينها معنى مشترك به يتشكل مفهوم الأسلوب، يقول الزرقاني: «يطلق الأسلوب في لغة العرب إطلاقات مختلفة فيقال للطريق بين الأشجار وللفن وللوجه وللمذهب وللشموخ بالأنف ولعنق الأسد ويقال لطريقة المتكلم في كلامه أيضا وأنسب هذه المعاني بالاصطلاح الآتي هو المعنى الأخير أو هو الفن أو المذهب لكن مع التقييد».

ثم يعرف الأسلوب فيقول: «تواضع المتأدبون وعلماء العربية على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك».

ولهذا يقول محمد جبر بأن الأسلوب: «في أيسر صور تعريفه هو طريقة التعبير».

وسوف نلحظ من خلال التعريف الاصطلاحي الاختلاف في ذلك كما هو الحال مع التعريف اللغوي، وهذا ما يدل على العلاقة بين التعريفين.

2 – الأسلوب في الاصطلاح:

وعندما نرجع لركيزة التحليل الأسلوبي نجد أن الأسلوب هو الموضوع الأساسي الذي تبحث فيه الأسلوبية، فهي المنهج الذي يحدد القوانين والمقاييس التي يعرف بها الأسلوب وجمالياته في النص الأدبي. ومع ذلك كان الاختلاف في تعريفه ونذكر بعضها من باب البيان والذكر لا الحصر، وكلها إما تنطلق من المرسل أو الرسالة أو المرسل إليه:

ففي الدراسات العربية الأسلوب هو: «طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ, وتأليف الكلام». وهو: «الميزة النوعية للأثر الأدبي». وهو: «قوام الكشف لنمط التفكير عند صاحبه». وقيل هو: «الصورة اللفظية التي يعبّر بها عن المعنى, أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار, وعرض الخيال, أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني».

وفي الدراسات الغربية الأسلوب هو: «استخدام الكاتب لأدوات تعبيرية من أجل غايات أدبية, ويتميز في النتيجة من القواعد التي تحدد معنى الأشكال وصوابها». وهو: «الاختيار الواعي لأدوات التعبير». وهو: «وجه للملفوظ ينتج عن اختيار أدوات التعبير, وتحدده طبيعة المتكلم أو الكاتب ومقاصده». ويقول فاليري «إن الأسلوب انزياح بالنسبة للقواعد». ويقول رولان بارت: «لغة مكتفية بذاتها, ولا تغوص إلا في الأسطورة الشخصية والخفية للكاتب, كما تغوص في المادة التحتية للكلام حيث يتشكل أول زوج للكلمات والأشياء, وحيث تستقر نهائيا الموضوعات الشفوية الكبرى لوجوده,... ويعتبر ظاهرة ذات نظام وراثي بكل معنى الكلمة وهو بالإضافة لهذا تحويل المزاج». وعند بيفون: «الأسلوب هو الإنسان نفسه».

ومن كل هذا فعندما نرجع لموقف الأسلوبيين نجد من قال بأن مصطلح"علم الأسلوب" مرادف للأسلوبية، وعليه انتقل الأسلوب في النقد الحديث من كونه يعني الفن أو الطريق أو المذهب أو الوجه، ومن كونه عاما مميعا يختص بالموضة والفن والسياسة وتدبير الحياة اليومية، إلى علم ومنهج نقدي قائم بذاته يتكفل برصد الملامح المميزة للخطاب الأدبي.

ومنهم من فرق بينهما، فقال بأن علم الأسلوب يقف عند تحليل النص بناء على مستويات التحليل وصولا إلى علم أساليبه، أما الأسلوبية فهي تتجاوز النص المحلل المعلومة أساليبه إلى نقد تلك الأساليب بناء على منهج من مناهج النقد المعروفة، يقول صلاح فضل: «الأسلوب: محصلة مجموعة من الاختيارات المقصودة بين عناصر اللغة القابلة للتبادل».

ولذا دأب الأسلوبيون على رصد أساليب الكتاب وتفردهم واختلافهم، الواحد عن الآخر، من خلال المحددات الثلاث: الاختيار . التركيب . الانزياح. وبعضهم جعل السياق مكان التركيب. على اعتبار أن الأسلوبية منهج نقدي نسقي غايته مقاربة النصوص في سياقها اللغوي المتمثل في النص، ومدى تأثيره في القارئ، فيجعل الأسلوبي من الأسلوب مادة لدراسته، وبالتالي فالأسلوب حقل خصب للدراسة الأسلوبية تنظيراً وتطبيقاً.

المحاضرة الثالثة

مفهوم الأسلوب والأسلوبية (2)

وبعد حديثنا عن الأسلوب نتكلم عن الأسلوبية، وسيكون حديثنا عن مفهوم الأسلوبية مراعيا للجناب التحليلي الذي هو من أهداف برمجة هذا المقياس.

ثانيا – مفهوم الأسلوبية

إذا ما أراد الباحث أن يجد مفهوما لها يجد نفسه أمام آراء عدّة، وإشكالات كبيرة؛ ذلك أن الأسلوبية لم تنطلق من فراغ وإنما اعتمدت وتداخلت مع العلوم القديمة والحديثة ما يجعلها ذات حدود واسعة، فمعظم الباحثين والذين أفردوا للأسلوبية بحوثا بدؤها

بتحديد مفهومها وإبراز نقاط تلاقيها وافتراقها مع علوم ومناهج أخرى ليخرجوا في الأخير بتحديد علميّ للأسلوبية.

فشارل بالي يرى بأن الأسلوبية: «تدرس وقائع التعبير اللغوي من ناحية مضامينها الوجدانية؛ أي أنها تدرس تعبير الوقائع للحساسية المعبر عنها لغويا كما تدرس فعل الوقائع اللغوية على الحساسية».

فشارل بالي يبحث عن الآثار الوجدانية في اللغة، لهذا استبعد النص الأدبي من أسلوبيته، لأنه يمثل لغة تخص شخصا بعينه, وهو الشاعر الذي تفنن بطريقة انفرادية في تفجير طاقات اللغة في نصه، وأما أسلوبية بالي فإنها تبحث في لغة جميع الناس، بما تعكسه من عواطف ومشاعر، ومن هنا كان العمل الأدبي عنده لا يعدو كونه ركيزة، أو وعاء، أو حجة تتيح تحليل وقائع اللغة العاطفية.

وقريبا منه يذهب دولاس وريفاتير إلى أن الأسلوبية: «علم يستهدف الكشف عن العناصر المميزة التي يستطيع بها المؤلف (المرسل) مراقبة حرية الإدراك لدى القارئ (المستقبل) والتي بها يستطيع أيضا أن يفرض على المستقبل وجهة نظره في الفهم والإدراك، فينتهي إلى اعتبار الأسلوبية لسانيات تعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين، وإدراك مخصوص».

فريفاتير بأن الأسلوبية علم يوضح الخواص البارزة التي تتوفر لدى المرسل والتي بها يؤثر في حرية التقبل لدى المتلقي، بل إنه يفرض على هذا الملتقى لونا معينا من الفهم والإدراك.

ويعرفها جاكبسون: «إنها البحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولاً وعن سائر الفنون الإنسانية ثانيا».

بمعنى أنه يدرس النص الأدبي دراسة أسلوبية فيقارن النتاج الأدبي مع غيره من النتاجات ليبين ميزاته وخصائصه، وعليه فالأسلوبية عنده تبحث عن المستوى الفني للخطاب الذي يميزه عن غيره من الخطابات، ويميزه كذلك عن الفنون الأخرى التي قد تشترك مع الأدب في مادة التعبير، ولكنها تختلف عنه في الوسيلة والشكل التعبيري.

ويذهب آريفاي إلى أن «الأسلوبية وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات».

ويقول فتح الله أحمد سليمان أن: «الأسلوبية هي أحد مجالات نقد الأدب اعتمادا على بنيته اللغوية دون ما عداها من مؤثرات اجتماعية أو سياسية أو فكرية أو غير ذلك...أي أن الأسلوبية تعني دراسة النص ووصف طريقة الصياغة والتعبير فيه».

ويراها عبد السلام المسدي بأنها: «علم تحليلي تجريدي، يرمي إلى إدراك الموضوعية في حقل إنساني عبر منهج عقلاني يكشف البصمات التي تجعل السلوك الألسني ذا مفارقات عمودية».

فقد صاغ المسدي تعريفه من محاور ثلاثة، هي: المخاطِب(صاحب الأدب)، والمخاطَب(متلقي الأدب)، والخطاب(النص الأدبي). كما أن تعريفه انطلق من تعريفات الغربيين للأسلوب، ومنهم رومان جاكبسون.

ويقول منذر عياشي: «الأسلوبية علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، ولكنها- أيضاً- علم يدرس الخطاب موزعاً على مبدأ هوية الأجناس؛ ولذا، كان موضوع هذا العلم متعدد المستويات، مختلف المشارب والاهتمامات، متنوع الأهداف والاتجاهات».

فقد ركز العياشي في تعريفه للأسلوب على عنصر الخطاب، ثمّ أشار إلى تعدد مستويات الأسلوبية واختلاف الاتجاهات الأسلوبية.

ومن خلال هذه المفاهيم نرى أنها تولد إشكالية عند الدارس، فهي لم تقف عند نقطة محددة، يتفق على كونها حدا للأسلوبية أو علم الأسلوب، لذا نجد من الغربيين من أطلق فيها عبارة تصف المدى الذي تشكل منه ذلك الإشكال، حيث يقول ريتشارد برافو: «إن الأسلوبية محيرة، مراوغة، كثيرة الغموض والمزالق، سريعة الإفلات من اليد».

ولا ريب أن هذا الاختلاف في مفهوم الأسلوبية نبع من عدة قضايا منها، الاتجاهات الأسلوبية، وتحديد مفهوم المصطلحات وترجمتها، والآليات المعتمدة في التحليل، وغيرها من القضايا التي كانت سببا في بعض الإشكالات أثناء التحليل.

المحاضرة الرابعة

محدّدات الأسلوب (1)

محدّدات الأسلوب أو المباديء الأسلوبية، وهي كما أشرنا لها سابقا ثلاثة:

أولا – الاختيار

يراد به الانتقاء، والكلام كله إنما هو قائم على ذلك، فهو أساس كل تركيب وأساس كل أسلوب، وهو المحور المهم في الوصول للجمالية الأسلوبية، فللكلمة المختارة أثر فعّال في تقرير المعنى المراد داخل التركيب، وأي تغيير لها يؤدي إلى تغيير فيه، فكل عنصر داخل التركيب يؤدي في موقعه وظيفته المنوطة به، وتكمن قيمته من العلاقات القائمة بينه وبين العناصر الأخرى داخل النظام التركيبي للجملة، وبهذا الترابط بين مجموع تلك العناصر ضمن التركيب تظهر القيمة الأسلوبية للكلمة المختارة في مدى التعبير عن الفكرة وإبراز المعنى المقصود توصيله للمتلقي بما يتناسب وحاله ويتلاءم ومقامه، ليؤثر فيه وليثير انتباهه، ومن هنا ندرك قيمة الاختيار للكلمات داخل التركيب في إفراز وإبراز الجمالية الأسلوبية للكلام.

وقد ذهب الدارسون إلى أن الاختيار على نوعين:

الأول: «انتقاء نفعي مقامي ربما يُؤْثِر فيه المنشئ كلمة (أو عبارة) على أخرى لأنها أكثر مطابقة – في رأيه – للحقيقة، أو لأنه على عكس ذلك، يريد أن يضلل سامعه، أو يتفادى الاصطدام معه بحساسية تجاه عبارة أو كلمة معينة».

مثال ذلك نأخذ قوله – تعالى –: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، يتمثل الاختيار في لفظة "يفتنون" وفي لفظة "ذوقوا".

و(الفتنة من المشترك اللفظي لها عدة معاني)، جاء في التضمين النحوي محمد نديم فاضل: «وأصلها إذابة الجوهر ليظهر غشه ثم استُعمل في التعذيب والإحراق: وقال جُل المفسرين «يُفْتَنُونَ": يعذبون ويحرقون. قال الرازي: قيل يُحرقون والأولى "يُعرضون" عرض المجرب الذهب على النار، فكلمة "على" تناسب ذلك ولو كان المراد يحرقون

لكان بالنار أو في النار أليق لأن الفتنة هي التجربة. وذكر الزمخشري: يُحرقون ويُعذبون. ومنه الفتين وهي الحرَّة لأن حجارتها محرقة. وقال الجمل: عُدِّي يفتنون بـ "على" لتضمنه معنى يُعرضون وقيل: يُجبرون».

إذا عندنا مجموعة من الألفاظ وهي: يجبرون، يعرضون، يعذبون، يحرقون، فاختيار لفظة "يفتنون" من بين البدائل المطروحة عموديا على مستوى محور الاختيار لما لها من قيمة أسلوبية تحمل المعنى في العمق لتمر به على السطح، بتكثيف الدلالة وتوسيع دائرة القراءات، وزيادة في التخيل والتصوير لذلكم الموقف الذي سيقفون فيه، وهذا يجعل من كل البدائل المطروحة – رغم المفاضلة – واقعا محقق الثبوت لا محالة، فسوف يعرضون على النار وسوف يجبرون على دخولها ويعذبون فيها ويحرقون بها.

كما أن كل لفظة من البدائل قد تقوم مقام الأخريات وتؤدي نوعا من الدلالة السطحية الظاهرة المعروفة، لكنها قاصرة في ذاتها عن الإحاطة بمدلول باقي البدائل هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا تملك إحداث الدهشة لتداولها وكثرة استعمالها، وعليه لا تكون بنفس قوة اللفظة المخصوصة المختارة "يفتنون"، وما تحدثه من مفاجأة لأنها غير متوقعة ولا منتظرة.

ثم أن أصل الفتن إدخال الذهب في النار لاختيار جودته من رداءته، ولا يذاب إلا بحرارة نار شديدة، واستعمل (استعير) في إدخال هؤلاء الخراصين النار لاختبار العزة والكرامة التي كانوا يدعونها وينفون بسببها وجود يوم القيامة، ليظهروا على حقيقتهم وما هم عليه، وهذا كناية عن الإحراق الشديد الذي ينتظرهم.

ثم المجيء بلفظ "ذوقوا" مقرونا بالفتنة دون مرادفاته يزيد في القيمة الأسلوبية بغرض زيادة التنكيل بهم مع شدة العذاب وتنوعه، وذلك أن لفظ "ذوقوا" فيه نوع من الرقة واللطف بما يتناسب وحاسة الذوق المنوطة باللسان فهو أشد الأعضاء إحساسا، لذا يُجس به الطعام، واستعير ليعبر عن الإحساس القوي بملابسة طعم الفتنة التي

تنتظرهم، وهذا الأسلوب بلغ ذروة الاستهانة والتحقير والاستفزاز لمن يظن نفسه على الحق وأنه في منعة وعزة.

ثم أن (الأصل في الذوق يكون للقليل من الطعام دون الكثير، وعكسه الأكل يكون للكثير تناوله)، وهنا معنى آخر أسلوبي يفيده السياق حيث اختير لفظ "ذوقوا" في العذاب لأن ذلك وإن كان في المتعارف القليل فهو مستصلح للكثير، فخصه بالذكر ليعم الأمرين، وهذا يدل على إحاطة العذاب بهم وأنهم لا يَسْلَمون من صغيره ولا كبيره، ووَقْعُ هذا على النفس كبير وتأثيره فيها عظيم، فوحده يعد عذابا دون العذاب الأكبر.

كما أن الاختيار للفظين مع بعضهما "ذوقوا فتنتكم" (يجعل الكلام موجها بتذكير المخاطبين في ذلك اليوم ما كانوا يفتنون به المؤمنين من التعذيب مثل ما فتنوا بلالا وخبابا وعمارا وسمية وغيرهم، أي هذا جزاء فتنتكم... وجعل المذوق فتنتهم إظهارا لكونه جزاء عن فتنتهم المؤمنين ليزدادوا ندامة).

وهكذا فإن قيمة كل إجراء أسلوبي – كما يرى ريفاتير – تتحدد من خلال ما يحدثه من مفاجأة لدى المتلقي، فكلما كانت الخاصية الأسلوبية غير منتظرة وغير متوقعة كان أثرها في نفس المتلقي عميقا وأبعادها كبيرة، وهذا ما نراه من جراء ما تحدثه هذه الكلمات المختارة في نفس المتلقي، والتي يراد بها فيما ذكرنا الإذلال والتحقير والإهانة، ويؤكد ذلك السياق والعلاقة بين عملية الذوق والشيء المراد ذوقه وهو الفتنة، إذ أن الذي يأمر بالذوق يكون يعلم طعم الشيء المذاق ومتأكد منه، وحين يستعمله في غير ما يذاق ولمن يرى نفسه أنه يستحق التعظيم والتكريم يكون حينها أبلغ في التهكم، ومن هنا تحدث المفاجأة لأن المخاطَب لم يكن يترقب ذلك.

والثاني: «فهو انتقاء نحوي.. بمفهومها الشامل؛ الصوتية والصرفية والدلالية ونظم الجمل.. ويدخل تحت هذا النوع من الانتقاء كثير من موضوعات البلاغة العربية، كالفصل والوصل والتقديم والتأخير والذكر والحذف».

مثال ذلك نأخذ قوله – تعالى – : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾. فنجد في الآية أن جواب "لو" محذوف، وتقديره: (لكان هذا القرآن).

أي هو الذي له من القوة والقدرة على ذلك، فيسير الجبال ويقطع الأرض ويكلم الأموات. يقول أحمد بدوي: «وحذف الجواب هنا يشير إلى أنه من الوضوح بمكان، فلو أن قرآنا أوتى تلك القوة الخارقة، لكان هذا القرآن جديرا أن تكون له هذه القوة».

ففي حذف هذا الجواب يظهر مدى التأثير الحاصل على المتلقي وإثارته، بحيث لو ذكر الجواب لم يكن بنفس العظمة عنده، ولا بنفس منزلة الحذف، فالحذف يذهب السامع كل مذهب، ويتركه لا يعول على نفسه في تحديد المعنى المراد، مثل ما يكون في إيراد اللفظ بذاته، وفي هذا تنبيه لاختبار المتلقي، (لأن نفس السامع تتسع في الظن والحساب ، وكل معلوم فهو هين لكونه محصورا)، لكن غير المحصور يحدث المفاجأة عند المتلقي ويكثف الدلالة عنده، فيلجأ للبحث وراء الدافع الموجب لهذا النمط من التركيب، بإعمال الفكر وتنشيط العقل والخيال، وهذا (أحد أنواع سحر الكلام حيث يتوصل بتقليل اللفظ إلى تكثير المعنى).

فما حذف في الصياغة التركيبية للكلام يكون موجودا في البنية العميقة وتدل عليه القرائن والإيحاءات والإشارات، فيؤدي بذلك وظيفته التأثيرية والدلالية، ويشحن ذهن المتلقي بشحنات عديدة ومختلفة تضاعف من أحاسيسه وتجعله يعدد القراءات ويوسع الدلالات كي يستقيم السياق النحوي والدلالي للصياغة، وبالتالي يترسخ المعنى في ذهن المتلقي أكثر مما لو ذكر العنصر المحذوف نفسه.

يقول عبد القاهر الجرجاني منوهًا بشأن الحذف ومبرزًا قيمته: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن».

المحاضرة الخامسة

محدّدات الأسلوب (2)

والمحدد الثاني من محددات الأسلوب هو:

ثانيا – الانزياح

له عدّة تسميات؛ الانزياح والعدول والتجاوز والانحراف والانتهاك والشناعة، المخالفة والإطاحة، وخرق السنن واللحن، يقول عدنان بن ذريل: «هي في الحقيقة لمسمى واحد وأطلق عليها عائلة الانزياح، وما الاختلاف في التسمية إلا نتيجة الاختلاف في النظرة إلى تطبيقاتها».

ولهذا فالانزياح في المفهوم الأسلوبي مقرون بمفهوم الأسلوب، أي أن الأسلوب في ذاته انزياح، وهو في عمومه يراد به الخروج عن المألوف لداع من الدواعي التي يراها منشئ الكلام، سواء أكان هذا الخروج صوتياً أم صرفياً أم نحوياً أم معجمياً أم دلالياً، عن طريق استغلال إمكانات اللغة وطاقاتها الكامنة، يقول نعيم اليافي في تعريفه بأنه: «خروج التعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياسا في الاستعمال ، رؤيةً ولغةً وصياغةً وتركيباً».

وتكمن وظيفة الانزياح في أنه (عنصر المفاجأة التي تصدم المتلقي، وتشكّل الإثارة والدهشة لديه، فكلما كانت السّمة الأسلوبية متضمّنة للمفاجأة فإنّها تحدث خلخلة وهزّة في إدراك القارئ ووعيه، لذلك فإنّ قيمة كل ظاهرة أسلوبية تتناسب مع حدث المفاجأة التي تحدثها تناسبا طرديا، بحيث كلما كانت الخاصية غير منتظرة كان وقعها في نفس المتقبّل أوقع).

وما ذكرناه من أمثلة في الاختيار هي – أيضا – من الانزياح، مثل الحديث عن "ذوقوا" في الاختيار النفعي، ومثل الحذف في الاختيار النحوي، ومع ذلك لا مانع أن

نضرب له مثالا، وهو قوله – تعالى –: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

فالانزياح يكمن في أنهم سألوا عن "العلم" برسالته، فعدل عن ذلك وجاء بلفظ "الإيمان" برسالته بدل العلم، فلم يذكر العلم لأنه في لفظ الإيمان دلالة عليه، فلا يكون الإيمان من غير العلم بالشيء المُؤْمَن به، فمن آمن بالضرورة يكون على عِلْمٍ بما آمن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ولكن ليس كل من عَلِمَ يكون قد آمن كما هو حال السائلين هنا.

يقول ابن الأثير: «فإن الغرض بقولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ جواباً عن سؤالهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟﴾ إثبات العلم بإرساله، وأنه من الأمور الظاهرة المسلمة، التي لا يدخلها ريب، ولا يعترضها شك، لكن عدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه، ورادف له، وهو الإيمان به: أعني بصالح، وإنما صح منهم بعد ثبوت نبوته عندهم، والعلم بإرساله إليهم، فالإيمان به إذن دليل على العلم بأنه نبي مرسل. وهذا من دقائق الأرداف ولطائفه».

وتبرز الجمالية الأسلوبية لهذا الانزياح في توسيع الدلالة، وجذب نفس المتلقي نحو اللفظ الجديد، ما يحمله على الانتظار لمعرفة ما يحمله من إجمال وما خلفه من مراد، كما أن فيه مراعاة حسن الأدب في الرد عليهم وفي تكذيبهم، حيث لم يصرح بلفظة أنتم كاذبون تعلمون أنه مرسل، لأن فيه نوع من الاستهجان في الخطاب ينعكس سلبا على المراد من المخاطَب، ولذا جاء بلفظ ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ الذي هو نفي ما ادعوا في تكذيب صالح ومن آمن معه ، لأن ذلك رادف له.

ثالثا – السياق

السياق من محدّدات الأسلوب، وبعضهم يقول التركيب – كما أشرنا سابقا – وهو الظاهرة الأهم في تحديد المعنى المراد، لأنّه يفرض على المخاطِب طريقة معيّنة في الكلام، وعليه نجد الأسلوبية تعطيه عناية كبيرة لإحاطته بدلالة المخاطِب، فالسّياق

يبرز لنا الدلالات الممكنة للكلمات وينفي عنها غير الممكنة، فهو بذلك يسعى إلى تحقيق مقاصد المتلفّظ بالخطاب وتأدية العملية الإبلاغية التي يتوخّى المبدع نقلها إلى القارئ.

ويتكوّن مصطلح السّياق (Contexte) من المقطعين (Text) و (Cont)، أي (مع النسيج)، حيث استعمل المصطلح الأول ليعني الكلمات المصاحبة للمقطوعات الموسيقية، ثمّ بعد ذلك أصبح يستعمل بمعنى النّص، أي تلك المجموعات من الكلمات المتراصّة مكتوبة أو مسموعة، إضافة إلى معنى جديد متمثّل فيما يحيط بالكلمة المستعملة في النّص من ملابسات لغوية وغير لغويّة.

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس: "(السين والواو والقاف) أصل واحد، وهو حدو الشيء، يقال: ساق يسوق سوقاً، والسِّيقة: ما استيق من الدواب، ويقال: سقت إلى امرأتي؛ أي صداقها، وأسقْته، والسّوق مشتقّة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق" .

يقول بن منظور في لسان العرب: "ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً سياقاً... وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقاً إذا تتابعن، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة".

ومن هذا المفهوم اللغوي لكلمة سياق نجد أنّها تعني التتابع والتتالي والتساوق والارتباط والتسلسل والانتظام في سلك واحد، والتتالي في الحركة لبلوغ غاية محدّدة دون أن يكون هناك انقطاع أو انفصال.

ومن حيث الاصطلاح فإن هاليداي يرى أنّ: «السّياق هو النّص الآخر أو النّص المصاحب للنّص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية».

وتقول بروس أنغام أنّ السّياق يعني واحدا من اثنين:

- السّياق اللغوي: وهو ما يسبق الكلمة وما يليها من كلمات أخرى.
- السّياق غير اللغوي: أي الظروف الخارجية عن اللغة التي يرد فيها الكلام.

ومالينوفسكي قسّم السياق إلى نوعين: الأوّل سياق الحال أو الموقف. والثاني السياق الثقافي.

فكلّ من السياقين ضروري في عملية فهم النصّ، وهذا لما يؤديه كل منهما من دور بارز في تفسير النصوص.

ونجد دايك: قسّم السياق إلى خمسة أنواع وهي كالتالي: الأوّل السياق التداولي (النص كفعل كلامي). والثاني السياق الإدراكي أو المعرفي (فهم النصوص). والثالث السياق النفسي الاجتماعي (تأثير النصوص). والرابع السياق الاجتماعي (النص في التفاعل). والخامس السياق الثقافي (النص كظاهرة ثقافية).

فبعض الكلمات تحدد من خلال التركيب وهو سياقها في هذا المقام، وذلك أن اللفظ المفرد لا تحدد دلالته إلا في السياق اللغوي من خلال علاقاته النحوية بعناصر تركيبية ومن خلال سياقه النصي كذلك.

وبعض الكلمات تعرف من خلال الموقف أو المقام الذي قيلت فيه، فمن خلال ذلك نعرف المراد من تلك اللفظة أو غيرها، ولهذا عندنا نحن أهل الشريعة ما يسمى بأسباب النزول في القرآن الكريم، وأسباب الورود في الحديث الشريف، لأن ذلك يحدد المراد والمقصود من الكلام.

وهناك بعض الكلمات تعرف من خلال بيئة المتكلم والمتداول بينهم فمن خلال هذا السياق يمكن فهم المراد من الكلام، ولا يمكن خارجه أن نفهمه.. ومن هذا الكلمات المتداولة والتعبيرات الخاصة بين أهل الاختصاص الواحد، بحيث لو خرجت عن سياقها لا تفهم أو ربما تفهم على غير مقصد أصحابها.

ولنضرب أمثلة على ذلك، منها لفظ الأكل الوارد في القرآن الكريم، قوله تعالى:

1- ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾.

2- ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

3- ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

4- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾.

5- ﴿حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾.

6- ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾.

فمن خلال هذه السياقات اللغوية نلحظ أن اللفظ واحد ولكن المعاني اختلفت لاختلاف السياقات، ففي الأول يراد منه الأكل الحقيقي وهو أكل الطعام، بمعنى تغذية الإنسان، وفي السياق الثاني يراد منه الافتراس، وفي السياق الثالث يراد من الغِيبَة. وفي السياق الرابع يراد منه الاختلاس. وفي السياق الخامس يراد منه الإحراق. وفي السياق السادس يراد منه الرعي.

أيضا الفعل (ضرب)، مثلاً في: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ تختلف دلالته وإن اتحدت صيغته ومادته عن (ضرب) في (ضرب زيد عمراً) مع أن كلا التركيبين الفعليين يتألف من (فعل + فاعل + مفعول به). فالتراكيب النحوية يجب أن تدرس من خلال السياقات الواقعة فيها التي قد تحدث تأثيراً معنوياً أسلوبيا ينقل مواقع التركيز المعنوي من كلمة إلى أخرى ضمن عوامل الموقف اللغوي مركزية الكلام ومشاعر المتحدث وعلاقته بالسامع أو المتلقي مثل التقديم والتأخير المباح في تركيب الجملة، أو تحويل الكلمة من بنائها للمعلوم إلى بنائها للمجهول وهذه التأثيرات الأسلوبية تمثل جزءاً من أغراض الكلام، أي استعمال اللغة ووظائفها الدلالية لتكشف جانباً مهماً من موقف المتحدث.

المحاضرة السادسة

مستويات التحليل الأسلوبي

التحليل الأسلوبي يستمد مستوياته من علم اللغة الحديث وهو علم اللسانيات، وهي مستويات عديدة سنذكر الأهم منها الذي يكاد يقع عنه الاتفاق بين الأسلوبيين.

ولذا فمستويات التحليل الأسلوبي قائمة على اللغة، فالأسلوبية من هذا الجانب تتناول النص الأدبي بالدرس والتحليل وتحاول جاهدة أن تكشف بطريقة علمية وموضوعية عما به يستوي النص ليكون نصا متميزا عن سائر النصوص الأدبية الأخرى تركيبا وإيقاعا ونغما ودلالة، ومن أجل ذلك فقد مضى وقت طويل عُدَّ فيه

التحليل الأسلوبي مرادفا للتحليل اللساني، بل ذهب بعض الباحثين إلى القول بموت الأسلوبية كونها مصطلحا زائدا عن الحاجة في زعمهم.

وبما أن التحليل الأسلوبي مستمد منهجه الوصفي من اللسانيات، فإنه يعتمد في تحليله على مستويات التحليل اللساني، ويكاد هذا الأمر يكون محسوما عند النقاد الأسلوبيين، بأن التحليل الأسلوبي يتخذ من مستويات التحليل اللساني الذي وضعه دي سوسير للكلام، بأن الكلام تطبيق أو استعمال للوسائل والأدوات الصوتية، والتركيبية، والمعجمية، والدلالية.. خطوات في تحليله، منها يدرس لغة النص.

فالتحليل الأسلوبي ليس لسانيا وإنما هو يعتمده ويتكئ عليه في جملة ما يتكئ عليه من وسائل وطرائق وآليات، والوقوف على ما يقوم المحلل الأسلوبي بدراسته في هذه المستويات يعيننا على فهم أنماط التحليل، ففي كل مستوى هناك جملة من القضايا هي مادة التحليل للنص المدروس، وتختلف من نص لآخر، وجملة هذه القضايا تتمثل في:

1 – المستوى الصوتي:

عندما نرجع لتحليلات الأسلوبيين المختلفة نجد جملة من القضايا يتعرض لها المحلل الأسلوبي في المستوى الصوتي تختلف من محلل لآخر، يمكن أن نشير إليها في نقاط موجزة قصد بيانها والتي منها: الإيقاع، الوزن، النبر، النغم، التنغيم، الإعلال، الإبدال، الوقوف، القافية، المقاطع، التوازن، التوازي، التكرار، المخارج، الصفات، وظائف الأصوات، وتعلق ذلك بالدلالة والسياق.

2 – المستوى التركيبي:

ويتعلق بالجانب النحوي والصرفي، كدراسة الجملة، ؛طولها وقصرها, والفعل والفاعل, والمبتدأ والخبر, والروابط، والعلاقات، والتعالقات، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والبنية العميقة والسطحية، وبناء الكلمة، والاختيارات، الانزياحات، والوظائف النحوية، ونوع الأسلوب..الخ.

3 – المستوى المعجمي:

كإحصاء المفردات، ومعرفة مدلولاتها، والتطورات الطارئة عليها، وعلاقتها في التركيب، ومدلولاتها السياقية، وتحديد الحقول المعجمية الغالبة في النص، ثم الكشف عن دورها وأهميتها ضمن تفعيلها في السياق العام وعلاقاتها مع المستويات الأخرى... الخ.

4 – المستوى الدلالي:

ينطلق من الجانب المعجمي للوقوف على الدلالة الأصلية، ليرصد التطور الدلالي، ويظهر الانحرافات المستعملة، ويقف عند استخدامات الألفاظ المختلفة، ومعرفة الحقول الدلالية، وبيان أوجه التوسع من البنية العميقة إلى البنية السطحية، ومن الدلالة المضيقة إلى الدلالة الموسعة، أو الدلالة بين الحقيقة والمجاز، ومدى الارتباط بين الدال والمدلول، وإبراز دلالة السياق... وغيرها.

وبعد معرفة مستويات التحليل الأسلوبي وما يدرس في ذلك؛ فإن الأمر يقتضي منا التطرق لاستثمار المنهج الأسلوبي للعلاقات المتاحة التي يجعلها دعما في عملية التحليل، فهي أحد الآليات الأسلوبية في التعامل مع النصوص، ومنها نقترب بخطوة أخرى نحو إشكالات التحليل.

المحاضرة السابعة

آليات التحليل الأسلوبي

الأسلوبية كغيرها من المناهج النقدية التحليلية تعتمد في مقاربتها على مجموعة من الآليات يمكن الحديث عنها في نقاط لأنه من خلالها تبرز بعض الإشكالات أثناء عملية التحليل.

وآليات التحليل الأسلوبي هي آليات العلوم المتعلقة باللغة عموما، بل حتى بعض العلوم الأخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما، ونقصد به استثمار المنهج التحليلي الأسلوبي ما في العلوم الأخرى – التي ترتبط بالأسلوبية – من إمكانات مختلفة، وتوظيفها في التحليل، على حسب كل مستوى.

من ذلك اعتماد الأسلوبية على علم النحو وما فيه من قواعد، من خلالها تنضبط قوانين الكلام، وبعدها يكون بوسع الأسلوبية أن تتصرف فيه عند استعمال اللغة.

فتوظف الأسلوبية موضوعات النحو المختلفة أثناء التحليل، كالأفعال وأنواعها، والأسماء ومشتقاتها، والحروف وتقسيماتها، والتركيبات المختلفة؛ مثل الجملة الاسمية والفعلية والشرطية، وتستغل كذلك توظيف التوابع في اللغة كالمضاف والصفة والحال و..وغيرها من مكونات اللغة المختلفة.

معنى ذلك أن الأسلوبية علم لساني يعنى بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة. فـ(الباحث الأسلوبي لا يمكنه أن يشرع في التحليل الأسلوبي دون الاستناد إلى النحو بكل فروعه، الأصوات، والتحليل الصوتي، والصرف، والتركيب، والمعجم، بالإضافة إلى الدلالة).

ولهذا السبب ينبغي امتلاك معرفة جيدة بالقواعد لأن ذلك يمثل أداة لا يمكن الاستغناء عنها وهذا ما عبّر عنه ماروزو إذ أكدّ على أنّ الأسلوبية تغطي كل مجال اللغة، ويمكن إدراك الأسلوبية طبقاً للتقسيمات التقليدية للقواعد والصوت والنحو والمعجم وتركيب الجمل.

ونفس الشيء مع البلاغة، فقد استفادت الأسلوبية من الآليات البلاغية ووظفتها توظيفا مباشرا أثناء التحليل، مثل التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والفصل والوصل، والحقيقة والمجاز، والتشبيه والكناية والاستعارة.. إلى غيرها من الآليات التي احتوت عليها علوم البلاغة الثلاث.

ويظهر ذلك جليا عند الحديث عن الاختيار والانزياح وبعض الظواهر الأسلوبية الأخرى، مثل التكرار وبيان نوعية الأسلوب، وعند دراسة الإسناد (المسند والمسند إليه) وغيرها من الأدوات البلاغية.

كما أن التحليل الأسلوبي لا يمكن له الاستغناء عن علم الدلالة، لأن النص يتحرك ضمن دلالاته، وعليه فإن الدلالة ركن أساسي في الحدث الكلامي، فالمتكلم يهدف بالدرجة الأولى من كلامه إلى تبليغ رسالة معينة للمتلقي تحمل دلالة ما، فالوظيفة

الإنشائية تقوم أساسا على البعد الدلالي، ما يجعل الدلالة هي المقصود الأبرز من إنشاء الكلام.

يقول مازن الوعر في تقديمه لكتاب "علم الدلالة" لبيار جيرو: «إذا كانت الصوتيات واللغويات تدرسان البنى التعبيرية وإمكانية حدوثها في اللغة، فإن الدلاليات تدرس المعاني التي يمكن أن يعبر عنها من خلال البنى الصوتية والتركيبية».

ولا شيء يقوى على ضبط هذه الدلالات وتحديد مواقعها أو رسمها وبنائها قدر ما يقوي الأسلوب عليه، ومن هنا نرى قيمة علم الدلالة بالنسبة للتحليل الأسلوبي حيث لا غنى للمحلل عنه، وإن اقتضاء هذا الأمر إنما يعني في أحد وجوهه ضرورة هذين العلمين أو اشتراكهما معا للإمساك بالمتغيرات الدلالية التي ينطوي عليها الحدث الأسلوبي.

والأمر كذلك عند الدراسة الصوتية فإن الأسلوبية تعتمد على علم الأصوات في تحليلها الأسلوبي، وهي تستفيد من الدراسات النقدية من حيث الكشف عن الظواهر الأسلوبية المتعددة للنص الأدبي، وفي ذات الوقت تقدم تصورات جديدة ومفيدة للدرس النقدي الحديث، وهكذا نجد الأسلوبية تستثمر ما في العلوم المختلفة من إمكانات تتعلق بالجانب اللغوي.

ويمكننا أن نخلص إلى أن الأسلوبية تدرس كل ما يتعلق بلغة النص من أدوات وصيغ وتراكيب وكلمات وصور وموسيقى، فتستفيد من علم الأصوات والصرف والتركيب والدلالة والبلاغة والعروض والقوافي... في الكشف عن سمات الأسلوب، وذلك لا يعني أن الأسلوبية قد أصبحت علماً يحوي تلك العلوم، لكنها تستفيد منها كآليات بما تحويه من قضايا لغوية لتستثمره في تحليل النص الأدبي.

المحاضرة الثامنة

اتجاهات الأسلوبية

الأسلوبية ليست اتجاها واحدا ولكنها اتجاهات عديدة ومختلفة كلها منطلقة من تصور معين لتحليل النص الأدبي وفي التعامل مع اللغة، وإن كانت في مجموعها وبمختلف مدارسها تشكلا علما مستقلا بذاته، ومن تلك الاتجاهات نذكر ما يلي:

1 – الأسلوبية التعبيرية لشارل بالي (1865–1947):

هذا الاتجاه يتزعمه اللساني شارل بالي، وحسبه فإن الأسلوبية تدرس المضمون الوجداني للغة حيث أن اللغة سواء نظرنا إليها من زاوية المتكلم أو من زاوية المخاطب فإنها تعبر عن الفكرة من خلال موقف وجداني حيث يشكل المضمون الوجداني للغة موضوع الأسلوبية عنده وترتبط أشكال التعبير بالمواقف الوجدانية ارتباطا وثيقا، ولكن دراسة المضمون أو الحالة الوجدانية التي تنعكس في ظرف ما من الظروف تبدو أقل اهتماما من الاهتمام بدراسة البنى اللسانية وقيمها التعبيرية عموما.

ولهذا يقصد بالتعبيرية طاقة الكلام الذي يحمل عواطف المتكلم وأحاسيسه حيث أن المتكلم يحاول أن يشحن كلماته بكم كبير من الدلالات التي يظهر أثرها على المتلقي وهي ظاهرة تكثيف الدوال خدمة للمدلولات كما يسميها البعض.

وهذا ما دأب عليه شارل بالي وأتباعه من الأسلوبيّين في تعاملهم مع النصوص الأدبية، انطلاقاً من المنهج الأسلوبي الذي يدرس لغة الخطاب سبراً لأغوارها، وما كان له ذلك لو لم ينحو منحى الدراسات اللسانية الحديثة، التي امتطت العلمية الوصفية سبيلاً لمدارسة النصوص من خلال لغتها ضمن تزامنيتها في إطار النسق المغلق المتمثل في النص.

فقد اهتم بالي في أسلوبيته التعبيرية بالجانب الأدائي للغة الإبلاغية، من خلال تأليف المفردات والتراكيب اللغوية ورصدها جانباً إلى جنب، انطلاقاً مما يمليه وجدان المؤلف، بذلك تعتبر التراكيب اللغوية حاملة لمضمون عاطفي مشحون دلالياً يجعل المتلقي يتأثر به، عندها يبقى الخطاب من خلال لغته المشكلة لبنيته الخارجية ذا تأثير فعال فيمن يحمل إليه.

2 – الأسلوبية النفسية لليوسبتزر (1887– 1960)

وتسمى الأسلوبية الفردية (أسلوبية الكاتب)، وقد أسس هذا الاتجاه الأسلوبي ليوسبتزر، وتكلم عنه في كتابه: "دراسة في الأسلوب"؛ وقد تأثر ليوسبتزر بعالم النفس فرويد في دراساته لخصائص أسلوب أديب ما، حيث يهتم هذا الاتجاه بمضمون الحالة ونسيجها اللغوي، ويرى أن الحالة النفسية للأديب تؤدي إلى نحو ما من الاستعمال اللغوي، فأسلوبية ليوسبتزر تهدف إلى الكشف عن خفايا عملية الإبداع ونفسية الفنان انطلاقا من النسيج اللغوي ويعتمد دراسة الأسلوب لاكتشاف البنية الثقافية والجمالية للنص، بتحديد مختلف الحقول الدلالية وذلك بالاستعانة بعلم الدلالة التاريخي مراعيا السياق أو المقام، ويعتمد ليوسبتزر على جملة من المبادئ، أهمها: التعاطف مع النص ضروري للدخول إلى عالمه الحميم؛ ودراسة النص تفضي إلى الكشف عن شخصية الكاتب؛ والأسلوب هو عدول فردي عن الاستعمال اللغوي العادي.

ولذا يقوم هذا المنهج على قراءة النص قراءة متكررة عدّة مرات ليعثر القارئ على خصائص وسمات في الأسلوب كثر ذكرها في النص، ومن تلك السمات يحاول المحلل أو الناقد الوصول إلى الخصائص النفسية التي تفسر تلك الظاهرة المتكررة، وبعدها يعيد المحلل الكرة مرة أخرى للبحث عن سمات أخرى تكررت في النص وهكذا، فهذه المراحل الثلاث تشكل في هيئتها الدوران حول النص مرة بعد مرة، ويعتبر ليوسبتزر أول من طبق هذا المنهج على أعمال ديدرو ورواية شارل لويس.

3 – الأسلوبية الوظيفة:

تأسس هذا الاتجاه في الأسلوبية بفضل جملة من مفاهيم بعض اللسانيين حيث أسهم كل منهم بطريقته، انطلاقا من النقد وصولا إلى وضع التصورات والنظريات، ومن المفاهيم الأساسية لهذا الاتجاه مفهوم البينة الذي أسهمت به اللسانيات البنيوية في بلورة هذا الاتجاه، حيث تم توظيف مصطلح البنية في تصور القيمة الأسلوبية للعلامة التي تبرز في بنيتين تسمى الأولى بنية القانون وتسمى الثانية بنية الرسالة، ويلاحظ أن الأسلوبية البنيوية قد استقت جل مفاهيمها من الدراسات اللسانية، مثل: اللغة والكلام شارل بالي، والوظائف اللغوية الست لجاكبسون... ويعرف هذا الاتجاه بأنه يمثل

الأسلوبية الوصفية، وكما يهتم هذا الاتجاه بمفهوم البنية ووظيفتها حيث يؤلف لكل خاصية بنية وحيدة يستمد منها الخطاب مردوده الأسلوبي، فإنه لا يقلل من عملية الوظائف اللغوية في النص، حيث يقوم النص بوظائف إبلاغية في الاتصال بالناس وحمل المقاصد إليهم لذا يطلق على هذا الاتجاه بالأسلوبية الوظيفية.

وهذا الاتجاه أيضا امتداد لآراء سوسير في التفريق بين "اللغة" و"الكلام" كما تعد امتدادا لمذهب بالي في الأسلوبية التعبيرية الوصفية, وفقد طور البنائيون في بعض الجوانب وتلافوا بعض جوانب النقص عند سابقيهم حيث عايشوا الحركة الأدبية، وهنا يكون التحليل الأسلوبي خاضعا لتفسير العمل الفني باعتباره كائنا عضويا شعوريا.

ينطلق البحث الأسلوبي البنيوي في تحليله للآثار الأدبية من خلال البنى اللغوية المشكلة لها، ومدى تناسقها وتضافرها داخلياً لتكوين ذلك الكل الشمولي المتمثل في النص، وليس النص الأدبي نتاجاً بسيطاً من العناصر المكونة، بل هو بنية متكاملة تحكم العلاقات بين عناصرها قوانين خاصة بها، وتعتمد صفة كل عنصر من العناصر على بنية الكل. وعلى القوانين التي تحكمه. ولا يمكن أن يكون للعنصر وجود . (فيزيولوجي أو سيكولوجي) . قبل أن يوجد الكل، وعلى هذا الأساس فإنه لا يمكن تعريف أي عنصر منفصل إلا من خلال علاقاته التقابلية أو التضادية مع العناصر الأخرى في إطار بنية الكل.

4 – الأسلوبية الإحصائية

يهتم هذا الاتجاه بالجانب الإحصائي في وصف الظواهر الأسلوبية وذلك من أجل استخلاص معطيات تدل على صفات الخطاب الأدبي في أدواته البلاغية والجمالية، فعندما يوصف الأسلوب على أنه مجموعة من المميزات والسمات يستعمل منهج الإحصاء الرياضي في تحديد تلك السمات ومن ثم يتم تقييمه ونقده، وهذا ما يسمح بمقارنة تلك السمات في نصوص أخرى لنفس الكتاب أو لكتاب آخرين وقد عرض أولمان الدراسة التي قام بها في مقارنة مفردات ثلاث مسرحيات، واستنتج من خلالها الخصائص الأسلوبية والمعجمية لهذه المسرحيات.

فهذا الاتجاه يعنى بالكم وإحصاء الظواهر اللغوية في النص ويبني أحكامه بناء على نتائج هذا الإحصاء. ولكن هذا الاتجاه إذا تفرد فإنه لا يفي الجانب الأدبي حقه فإنه لا يستطيع وصف الطابع الخاص والتفرد في العمل الأدبي, وإنما يحسن هذا الاتجاه إذا كان مكملا للمناهج الأسلوبية الأخرى.

ومن رواد المنهج الأسلوبي الإحصائي في الغرب يمكن أن نقتصر على الأسماء الآتية: برنلد شبلز في مؤلفه: علم اللغة والدراسات الأدبية، دراسة الأسلوب والبلاغة. وكراهم هاف: الأسلوب والأسلوبية. وجون كوهن: بنية اللغة الشعرية.

ومن النقاد العرب الأسلوبيين الذين برزوا في هذا الاتجاه: محمد الهادي الطرابلسي، في منهجية الدراسة الأسلوبية، مجلة الجامعة التونسية نوفمبر 1983. وسعد مصلوح: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، والدراسة الإحصائية للأسلوب بحث في المفهوم والأجزاء والوظيفة، عالم الفكر العدد 03 أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1989. وصلاح فضل في علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته. ومحمد العمري: تحليل الخطاب الشعري.

المحاضرة التاسعة

منهج التحليل الأسلوبي

إذا تصفحنا المعاجم اللغوية للبحث عن مدلول المنهج فإننا نجد شبكة من الدلالات التي تحيل على الخطة والطريقة والهدف والسير الواضح والصراط المستقيم، جاء في المعجم الفلسفي: «وجميع الكتب العربية التي سميت بهذا الاسم تشير إلى أن معنى المنهج أو المنهاج عند مؤلفيها هو الطريق الواضح، والسلوك البيّن، والسبيل المستقيم».

ومن هذا فالمراد بالمنهج هو طريقة للبحث توصلنا إلى نتائج مضمونة أو شبه مضمونة في أقصر وقت وبأقل جهد ممكن كما أنه وسيلة تحصّن الباحث من أن يتيه في دروب ملتوية من التفكير النظري تعيقه عن تحقيق النتائج العلمية المرجوة.

ومن المعلوم في الدرس اللغوي الحديث أن مصطلح الأسلوبية يطلق على منهج تحليلي للنصوص الأدبية، بمعنى أنها مجموعة من الآليات الأدائية تمارس بها

مجموعة من العمليات التحليلية التي ترمي إلى دراسة البنى اللسانية في النص الأدبي بغية إدراك الطابع المتميز للغة النص الأدبي نفسه، ومعرفة القيمة الفنية والجمالية التي تستتر وراء تلك البنى، فالأسلوبية تكشف من خلال تحليل البنى اللسانية، عن البنى المتميزة، التي هي البنى الأسلوبية، إذ تضفي هذه الأخيرة على النص القيم الفنية والجمالية، والسمات الفريدة التي تكون في الوقت نفسه بمثابة الباعث على التحليل الأسلوبي.

وعليه تعد الأسلوبية من المناهج الحديثة التي تركز على دراسة النص الأدبي، معتمدة على التفسير والتحليل، وهي تمثل مرحلة متطورة من مراحل تطور الدرس البلاغي والنقدي، فقد استطاعت الأسلوبية أن تتجاوز حالة الضعف والقصور الموجودة في البلاغة العربية لتمثل منهجاً حديثاً في التحليل والنقد، فهي تتجاوز الدراسة الجزئية أو الشكلية إلى دراسة أعمق وأشمل.

وللإشارة فإن الإشكالية المطروحة أن هذا المنهج التحليلي يختلف لاختلاف اتجاهات الدرس الأسلوبي، وهنا تظهر دلالة المصطلح مع المنهج المتبع في إبراز الإشكالات، فمثلا إذا أفصح النص بأسلوبه عن مكونات شخصية منشئه, نفهم مقولة بوفون بأن الأسلوب هو الرجل نفسه – التي ذكرناها سابقا – فالأسلوب في هذه الحالة اختيار من بين مجموعة ممكنات, وهو كذلك ميزة لعقلية المبدع أو المرسل.

وإذا توجه التحليل للتركيز على التأثير الذي يتركه الأسلوب على المتلقي، فنكون مع منهج ريفاتير الذي اهتم بهذا النوع من الدراسات الأسلوبية, وقد توسع في بيان العلاقة بين الأسلوب والقارئ أو المتلقي.

وإذا اتجهنا إلى النص ذاته لاستخراج الثيمات الانعكاسية في النص التي تمثل وقائع اجتماعية أو سياسية.., فالأسلوب في هذه الحالة يقوم على مبدأ التضمن الذي يدل على أن للأسلوب وظيفة انعكاسية, وقد تطور هذا النوع من الدراسة الأسلوبية إلى الخوض في المجالات التداولية التي تلح في استخراج السمات الأسلوبية المتمثلة من

الوحدات اللغوية, وهذا النوع من الدراسات الأسلوبية قد يتقاطع مع التوجه الأسلوبي الذي يعزل النص عن المرسل والمتلقي ليتعامل معه بوصفه شيئا مستقلا.

وعلى العموم ما نريد قوله هو أن التطور الحاصل في الدراسات الأسلوبية يصبح من العسير القول بأن الأسلوبية تمثل منهجا بحثيا واحدا، فدراسات شارل بالي تشعبت عند آخرين مثل: كريسو وماروزو وجيرو وألمان، حتى شكلت ملامح منهج أسلوبي قائم بذاته أطلق عليه: المنهج الأسلوبي الوصفي, وتوسع الدرس فيها ليؤكد على تغيير وجهة الدراسة من التاريخية إلى التزامنية أو الوصفية لاستخراج الدلالات الاجتماعية أو الذهنية والتاريخية الكامنة في اللغة، وبذلك أولت اهتمامها إلى الصياغات اللغوية وعلاقتها بالجانب العاطفي والفكري، وعليه فإن تركيز هذا الاتجاه كما تمثل عند جيرو وألمان انصب تطبيقيا على دراسة الأصوات اللغوية لما تنطوي عليه من إمكانيات تعبيرية هائلة في التنغيم والإيقاع والكثافة والتكرار وطرق الأداء الصوتي، فضلا عن ذلك فقد أولى هذا الاتجاه الاهتمام بدراسة الوحدات الصرفية وما تتضمنه من دلالات فكرية وعاطفية مثل التصغير والتحقير والسخرية والهزل والتهكم، وهناك من اهتم بالأساليب النحوية وتراكيب الجمل ومنهم من اهتم بالدلالات وأثارها العاطفية.

وهذا الاختلاف في المنهج كون الأسلوبية ولدت من رحم اللسانيات، فهي ترتبط بها ارتباط الناشئ بعلة نشوئه، ابتداء من شارل بالي تلميذ زعيم الدرس اللغوي المعاصر سوسير، إلى من جاء بعده ثمّ تكونت من خلالهم الاتجاهات الأسلوبية المختلفة، لأن اللسانيات سابقة في الوجود للأسلوبيات من حيث الزمن، يقول بوحوش رابح: «لقد أنجبت لسانيات دي سوسير أسلوبيات شارل بالي، ووّلدت البنيوية التي احتّكت بالنقد الأدبي، فأخصبا معا شعريات جاكبسون وتودروف وأسلوبيات ريفاتير، وهي مدارس استمدت رصيدها المعرفي من اللسانيات، لذا يذهب ميشال ريفاتير في كتابه محاولات في الأسلوبيات البنيوية إلى أن الأسلوبيات منهج لساني».

المحاضرة العاشرة

منطلقات التحليل الأسلوبي

موقف الاتجاه الأسلوبي يختلف تحديده من ناقد لآخر، إذ يرى (ميشال آريفي) أن وظيفة الأسلوبية تتحدد في وصف النص حسب مناهج مأخوذة من علم اللغة، وتتحدد عند (جورج مونان) في دراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية، أما (رومان جاكبسون) فيرى أنها تتحدد في البحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستوى الخطاب أولا، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا، ويرى (عبد السلام المسدي) أنها تتحدد في محاولة سبر الجوانب الصياغية للنص لإرساء منهج لغوي موضوعي يمكّن القارئ من إدراك انتظام خصائص الأسلوب الفني إدراكا نقديا يعي الخصائص الوظيفية للنص، أما (شكري محمد عياد) فيرى أن وظيفته تتحدد في الكشف عن القيم الجمالية في الأعمال الأدبية منطلقا من تحليل الظواهر اللغوية والبلاغية للنص، وتحليل الأساليب وفق منهج موضوعي.

ومما سبق ذكره لا بد أن نعرف أن الأسلوبية تنطلق في تحليلها للنصوص الأدبية من ثلاث قضايا أساسية تتمثل، في: أولا: اللغة بكل مكوناتها وإمكاناتها. ثانيا: العناصر غير اللغوية (المؤلف، الموقف، القارئ، ...). ثالثا: الجمالية المتمثلة في التأثير على القارئ.

وأيضا على ما ذكرنا من استثمار الأسلوبية للإمكانات المتاحة في العلوم الأخرى، والاستفادة منها في تحليل لغة النص المدروس، فإن هذا الاتساع جعل منطلقات الأسلوبية في التحليل تتعدد وتختلف، حسب نوع التحليل وخواصه، ما أنتج إشكالات مختلفة أثناء التحليل، وعليه يختلف الانطلاق في التحليل على حسب نوعية التحليل:

فإذا كان الدارس ينطلق في تحليله من المقاربة البنيوية يكون التحليل منطلقا من مباني المفردات والتراكيب (الجمل) وما تعلق بذلك، من قضايا ومسائل اللغة المختلفة.

وإن كان المنطلق من دراسة الدلالة يكون التحليل من دراسة المعاني الجزئية والكلية، المعجمية والتركيبية والسياقية، والأغراض والمقاصد، والأجناس المعتمدة.

وإن كان المنطلق من دراسة البلاغة يكون التحليل من الظواهر البلاغية، والصور المستخدمة، كالمسند والمسند إليه، والخبر والإنشاء، والتمثيل والتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز... الخ.

وقد يكون المنطلق من جوانب أخرى مثل المقارنة والإحصاء والموازنة... فتستعمل تقنيات ومناهج تتعلق بذلك.

وفي بعض الأحيان تكون الدراسة الواحدة مزيجا من تلك المنطلقات، كما نرى ذلك في محددات الأسلوب، كالانزياح مثلا، فكما يكون في القواعد النحوية يكون أيضا في القواعد الصرفية، وأيضا في القواعد البلاغية... بحيث يجد الدارس نفسه أمام تنوع واختلاف حقيقي لا تعطيه إلا أن الانزياح خروج عن المألوف وكفى، فيجد المحلل الأسلوبي نفسه أمام بحر شاسع لا ساحل له، ما ينجيه منه إلا أن يقف عند ما انقدح في ذهنه أو أسعفه الوقت وحجم البحث بأن يقف عنده.

المحاضرة الحادية عشرة

اختلاف التحليل الأسلوبي وأسبابه

بعض الأسلوبيين درسوا النصوص الأدبية بمقاربتهم الظاهرة الأسلوبية بدءًا بعلاقة المبدع بالنص، وهنا انصب جهدهم على دراسة مدى انعكاس شخصية المبدع في نصه، وتصبح الرسالة اللغوية حينها مطية للتعريف بشخصية المبدع، مما يدخل في إطار علم النفس اللغوي الذي يعتبر أحد مناهج المقاربة الأسلوبية.

وبعضهم الآخر فقد ركّز اهتمامه على دراسة النصوص وعلاقتها بمتلقيها، إذ يهتم بمدى استجابة القارئ للنصوص وأهميته في ذلك، حيث يعد المتلقي، من خلال ملاحظاته منطلقاً طبيعياً لفحص الرسالة اللغوية الحاملة للنص.

وهناك فريق آخر أقصى كلاً من المبدع والمتلقي في مقاربته للنصوص الإبداعية، وأبقى على النص وحده، إذ يرى أن النص هو الوحيد الذي باستطاعته إلى حد ما الكشف عن محموله الدلالي من خلال خواصه اللغوية التي تميزه عن نص آخر، أو يتميزا كاتبه عن كاتب آخر.

وهذا الأخير هو الذي يغلب على التحليل الأسلوبي، وأغلب الدراسات الأسلوبية منكبة على النصوص من هذه الوجهة الأخيرة، والإشكالية المطروحة أثناء التحليل هي أنه لا يوجد ضابط أو ضوابط واضحة جلية تضبط المحلل في أي مستوى من مستويات التحليل المختلفة، يمكن أن يكون بمثابة الوصفة لجميع الدارسين، يقول الأستاذ تاوريريت بشير: «الواقع أنه لا توجد وصفة جاهزة تعتمد في التحليل الأسلوبي، وتطبق تطبيقا آليا مع الاطمئنان إلى أنها تتضمن مادة تقي الدارس شرّ الخطأ في التقدير والمجازفة في القول، وليس ثمّة قواعد متحجرة ولا آليات ثابتة».

بمعنى أنك لو أعطيت نصا أدبيا لمجموعة من المحللين ليقوموا بتحليله على مستوى أو أكثر من مستويات التحليل لوجدت اختلافا بَيِّناً في التحليل في كل مستوى بين تلك الدراسات للنص الواحد من هؤلاء المحللين، حيث تجد كل واحد منهم سلك وجهة معينة في تحليله للمستوى المدروس، يختلف عن وجهة الآخر، فلا ينطلقون من منطلق واحد، ولا يقفون عند نقطة واحدة، ويختلفون في المادة المنتقاة، وما يجمعهم إلا المستوى المدروس وعموم المادة فيه.

أو خذ مجموعة من الأساتذة ليضعوا لك إجابة نموذجية في مقال منهجه منهج التحليل الأسلوبي، فإنهم سيجدون أنفسهم في صعوبة كبيرة ولدتها إشكالية التحليل، وهم يدركون أنه لا يمكن وضع شيء مفصل يمكن أن ينضبط به جميع الممتحنين، لذا ما يكون أمامهم إلا خيارا واحدا هو وضع الخطوط العريضة، والملامح العامة لذلك التحليل، وترك الأمر لاجتهاد الممتحنين بأن تكون إجابتهم ضمن ما يتحمله المستوى المدروس، أو المُحَدِد الذي يقوم بتجليته من خلال النص.

بل لو تتصفح مجموعة من الدراسات التحليلية الموجودة في بعض الكتب أو الرسائل أو البحوث والمقالات، لبقيت حائرا في اتخاذ خطوات ثابتة متفق عليها في التحليل، كل ما تجده مستويات معلومة، وفي كل مستوى هناك مادة علمية تتعلق به، وهناك محددات تتعلق بالأسلوب، وفي كل مُحَدِد مادة علمية تتعلق به، وهكذا، وتبقى أنت بين تلك المواد تتخير أيها يكون المناسب لك فتحذو حذوه، أو أي الأشياء التي

يسعفك جهدك لتقف عندها وتحللها، أو أنك تنهج نهجا بمفردك ينضبط بالضابط العام فقط، ثم تعوم بحرك بمفردك وبما تملكه من قدرات وإمكانات على إكمال ذلك التحليل بالاعتماد على نفسك في تعيين مادة الدراسة، وفي كل الأحوال تجد نفسك أمام إشكالية حقيقية أثناء التحليل تجعلك لا تدري من أين تنطلق؟ وأين تتوقف؟ أو ماذا تدرس؟ وماذا تترك؟.

خذ – مثلا – عنصر الاختيار الذي هو من محددات الأسلوب المعروفة، وقد قسمه الدارسون إلى نوعين: الأول : «انتقاء نفعي مقامي ربما يُؤْثِر فيه المنشئ كلمة (أو عبارة) على أخرى لأنها أكثر مطابقة في رأيه للحقيقة، أو لأنه على عكس ذلك، يريد أن يضلل سامعه، أو يتفادى الاصطدام معه بحساسية تجاه عبارة أو كلمة معينة».

والثاني : «فهو انتقاء نحوي.. بمفهومها الشامل؛ الصوتية والصرفية والدلالية ونظم الجمل.. ويدخل تحت هذا النوع من الانتقاء كثير من موضوعات البلاغة العربية، كالفصل والوصل والتقديم والتأخير والذكر والحذف».

بهذا يتضح لنا أن الاختيار مكون أساسي من مكونات عملية التشكيل الأسلوبي، وعند دراسة النوع الأول من الاختيار، فأنت أمام اجتهاد غير منضبط، يغلب عليه حدس الدارس، وملكاته، وما يراه مؤثرا، أو يراه يشكل توترا في النص، وما اختاره قد يتفق وقد يختلف مع اختيار القارئ، ونفس الشيء مع اختيار منشئ الكلام، والأمر نفسه يكون مع محلل آخر لنفس النص، وبالتالي لا نجد الإشكال في التنظير لعنصر الاختيار، لكن نجد الإشكال في التحليل لأنه غير منضبط.

يقول صلاح فضل: «ومع أن بواعث الاختيار لا يمكن عموما أن نقف عليها بدقة في البحث الأسلوبي إلا في حالة النصوص التي وصلتنا مسوداتها وصياغات مختلفة لها من المؤلف ذاته فإنه بمستطاع البحث أن يعيد بناء الإمكانات المختلفة المتاحة للمؤلف ويحلل اختياره للإشارات الأسلوبية المعينة في لحظة تاريخية خاصة، مما يؤثر بلا شك على منهج التحليل الأسلوبي».

وعندما تأتي للنوع الثاني من الاختيار ستجد نفسك أمام مجال رحب واسع من قضايا اللغة المختلفة ومن مسائل البلاغة المتعددة، لا تدري تلقاء هذا الكم الهائل ماذا تأخذ؟ وماذا تترك؟ في هذا النوع من الاختيار، وكيف تكيف دراستك؟ وعلى أي شيء تركز؟، وخاصة مع النصوص الثرية الوفيرة، وبالتالي ستجتهد وتدرس بعض الأشياء التي انطبعت في ذهنك أنها تحتاج إلى وقفة وتترك الباقي، وقد لا يكون ما اخترته ليكون مادة تحليلك هو المقصود لصاحب النص، ولا لقارئ ما، ولا لمحلل آخر، في حين لو كان هذا الجهد في علم من العلوم المعيارية لكان منضبطا ومحدودا ويمكن أن يحاكم فيه المحلل للقواعد المعيارية الحاكمة التي لا يختلف فيها اثنان، بل لو كانت مسائل خلاف فإن الخلاف فيها محدود ووجهات النظر محددة، لكن في التحليل الأسلوبي في استخراج وتحليل هذا النوع من الاختيار لا يمكن الجزم بأن هذا هو المراد وهو المقصود.

فالأسلوبية ترى النص أو الخطاب نتاجاً لغويا لاختيارات معينة، من خلال رصد الطاقة الكامنة في اللغة، ومن خلال فهم إمكانياته وطاقاته وأبعاده، وفق مستويين، هما: المستوى المثالي في الأداء العادي، والمستوى الإبداعي الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها.

كما تهتم بحدوث بعض الظواهر اللغوية ووظيفة كل ظاهرة، وتهتم بالتنويعات اللغوية في التركيب التي لها دلالة فنية، وبالتالي يُبْنى التركيب من خلال الاختيارات من المخزون اللغوي، وتنظيم تلك الاختيارات بما يتلاءم والنسق الذي يدور فيه الكلام. لذلك لا يمكننا التحدّث عن الأسلوب من دون اللغة والقواعد التي تنظّم استعمال هذه اللغة وهذا بدوره يؤدي بنا إلى معرفة العلاقة بين الأسلوبية والقواعد.

ونفس الشيء مع محدد الانزياح الذي يعتبر في المفهوم الأسلوبي أنه مقرون بمفهوم الأسلوب، كما يقول فاليري «إن الأسلوب انزياح بالنسبة للقواعد». وهو في عمومه يراد به الخروج عن المألوف لداع من الدواعي التي يراها منشئ الكلام، سواء أكان هذا الخروج صوتياً أم صرفياً أم نحوياً أم معجمياً أم دلالياً أم بلاغياً؛ عن طريق

استغلال إمكانات اللغة وطاقاتها الكامنة، يقول نعيم اليافي في تعريفه بأنه: «خروج التعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياسا في الاستعمال ، رؤيةً ولغةً وصياغةً وتركيباً».

فإذا جئت للتحليل فستجد نفسك أمام باب واسع من الانزياحات وتكون حينها أمام انتقاء وتخيير لبعضها تاركا البعض الآخر، محاولا ربط ذلك بالدلالة وتعليل تلك الانزياحات التي قمت باختيارها وانتقائها من النص، دون أن تجد قاعدة أو ضابطا أو حدا يجعلك تختار انزياحا على آخر، وإنما هي انطباع الباحث واجتهاده وما يراه أولى من غيره فيقدمه ويؤخر الباقي، وقد لا يكون ذلك عند محلل آخر، ناهيك عن مقصود صاحب النص، وبالتالي يبقى الأمر مفتوحا على المحللين والمتلقين، وهذا الانفتاح غير المضبوط بشيء معياري يحتكم إليه الجميع يجعل النتائج دوما خاضعة للتجدد والتغير، بحكم أنها نسبية إلا إذا دخلها المنهج الإحصائي فتصير محسومة مقطوعة لكنها في ذات الوقت تكون جافة خالية من روح الجمالية المقصودة من النص الأدبي.

ومع كل ذلك نغض الطرف عن الاختلاف الحاصل بين الأسلوبيين في تحديد القاعدة المعيارية التنظرية التي يتم الخروج عنها بفعل الانزياح، وما أحدثه هذا الاختلاف من فروق طفيفة بين الانزياح والانحراف أو الانزياح والعدول، وتلك التقسيمات التي لا نريد أن نثقل بها كاهلنا هنا ويسعها بحث آخر متخصص في ذلك.

بل عند تحديد مفهوم الأسلوب، أو دراسة المصطلح وحده – قبل النزول للتحليل – ستلحظ كماً هائلا في تعريفه أو تحديد مفهومه، وكل ذلك يعود إلى شمولية مفهوم الأسلوب، وإلى طبيعة استخدامات مصطلحه، فصعوبة تحديد الأسلوب كامنة في جوهر الأسلوب ومعناه، فهو مما يسهل الشعور بوجوده وبتأثيره في النفس ويصعب رغم ذلك ضبطه والتعريف به.

فيضفي ذلك على الدراسة التحليلية شيئا من الغموض، ويطرح نوعا من الإشكال، تجعل الصعوبة واردة عند الحديث عنه، فهناك أشكال الأسلوب، وأنماط الأسلوب، ومستويات الأسلوب، وأنواع الأسلوب، كل هذا وغيره ساهم في صعوبة الوصول إلى

وضع حد جامع مانع لمصطلح الأسلوب ومفهومه، وبالتالي يكون لتلك الصعوبة أثرها أثناء التحليل لا محالة.

ومن هنا فإنك إن أردت تحليل الأسلوب بحثت عنه عبر المستويات التي ذكرناها، فتبحث عنه في الصوت، وتبحث عنه في التركيب، وتبحث عنه في الدلالة... وفي كل مستوى أمامك مجال شاسع في لغة النص لتعلل نوع الأسلوب أو جماليته من خلال ما انبعث في نفسك وانقدح في ذهنك من خلال قراءاتك واستقرائك للنص المدروس.

أو يمكنك الحديث والبحث عنه من خلال المحددات التي ذكرناها، والتي هي: الاختيار، والانزياح، والسياق (التركيب) ويمكنك في كل محدد أن تبحث في المستويات المختلفة تحت المحدد الواحد، ففي المحدد الاختياري تدرس الصوت والدلالة والمعجمية والتركيبي... في كل ذلك معتمدا على عنصر الاختيار، ونفس الشيء مع محدد الانزياح، فتبحث عن الانزياح الصوتي والدلالي والتركيبي... وهكذا، وإذا جئت للمحدد التركيبي فيمكنك التركيز على نوع التركيب من خلال نوع الجمل، (اسمية وفعلية) وهذا مجاله النحو، أو من خلال نوع الأسلوب من حيث الخبر والإنشاء، وهذا مجاله البلاغة، أو تحليل من خلال استثمار الإمكانات اللغوية المختلفة، أو من خلال تكرار الأنماط اللسانية وغيرها، فتجد نفسك أمام منهج مفتوح على كل ذلك.

ومن كل هذا نجد فريمان (d.c.freeman) قد وضع الحقل الضابط الذي تتحرك فيه الأسلوبية في دراسة النصوص الأدبية، وينطلق من خلاله المحلل الأسلوبي لتحليل البنى التركيبية، كل ذلك محاولة منه لتفادي الإشكالات الحاصلة فيما ذكرنا، وهذا الحقل يتمثل في ثلاثة أنماط، هي:

1 – الأسلوب بوصفه انحرافا عن القاعدة.

2 – الأسلوب بوصفه تواترا أو تكرارا لأنماط لسانية.

3 – الأسلوب بوصفه استثمارا للإمكانات النحوية.

وقد بين أن اللساني هو من يحدد هذا الانحراف، ومع ذلك فالأمر ليس بالسهل ولا الهين. ونجد الدكتور محمد عبد المطلب قد خصص ثلاثة فصول كاملة في الباب

الرابع من كتابه البلاغة والأسلوبية لتوضيح هذه الثلاث، العدول والتكرار النمطي والسياق.

وقد تبنت وجهة نظر فريمان نظرية النحو التحويلي ومستوى اللغة في (البنية السطحية) و(البنية العميقة) والتحولات السياقية التي تتمخض عن ارتباطهما. كما تبنَّت النحو بمعناه التركيبي، ولم يقتصر الأمر على استثمار إمكانات النحو التحويلي.

كما أنه يمكنك أن تدرس الأسلوب بهذا المجال الواسع عبر المستويات التحليلية، وبإمكانك أن تفرده بالدراسة والتحليل من خلال الدرس البلاغي، بعيدا عن الدراسة التركيبية النحوية، أو الدراسة البنيوية، وانطلاقا من البلاغة – التي تعتبر الأسلوبية الحديثة الوريث الشرعي لها على قول بعضهم – فتقف على الجانب الإخباري منه والإنشائي، وتحلل مستويات الأسلوب الإنشائي الطلبي المتمثل في الأمر والنهي والنداء والاستفهام والتمني، بحكم أن الأسلوبية وطيدة العلاقة بالبلاغة، وبمعيارية البلاغة يمكنك التحكم في تحديد الأسلوب، والأمر الآخر هو الوصول للدلالة المرادة بحكم أن البلاغة تهدف من خلال المعيارية لبيان المعنى المراد من الصيغ المختلفة التي يجري عليها الأسلوب في الحقيقة والمجاز.

ويمكن القول بأن صعوبة إدراك الأسلوب تتمثل في البحث عن العلاقة الجامعة بين الإشكالات اللغوية في النص؛ وبين وظيفتها الشعرية الأدبية الجمالية، أي هي في إدراك ذلك التحول النمطي العجيب الذي يحول الدوال اللغوية المادية في النص إلى دوال جمالية عاطفية؛ أي محاولة تعليل ما نشعر به من الجمال وغيره من الأحاسيس التي تسربت إلى أنفسنا من لغة النص، فالجمال كامن في النص في أسلوبه في لغته، في تراكيبه وصوره الجمالية، ووظيفته الأسلوبية تتمثل في إقامة الدليل على ذلك الجمال.

ولهذا عندما نرجع للدراسات التحليلية الأسلوبية العربية – مثلا – منذ أمين الخولي وأحمد الشايب إلى أن أخذت الدراسات الأسلوبية الإجرائية التحليلية تنتشر مع بداية الثمانينيات من القرن العشرين وتتسع رقعتها في التسعينيات، ومن تلك الدراسات "اللغة

والإبداع" لشكري عياد، و"النقد والحداثة" لعبد السلام المسدي و"أساليب الشعرية المعاصرة" لصلاح فضل و"البنى الأسلوبية" لحسن ناظم و"الأسلوبية الصوفية" أماني سليمان داود و"الأسلوبية" لفتح الله أحمد سليمان، و"خصائص الأسلوب في الشوقيات" لمحمد الهادي الطرابلسي، وغيرها، فنجد أن هذه الدراسات تختلف في منهج التحليل وطرائقه وآلياته والمستويات التي تقف عليها في النصوص ونتائج هذه التحليلات.

وفي الأخير فإن الكلام ذو شجون، وما قلناه كاف لإبراز الاختلاف في التحليل الأسلوبي، ويمكن بعدها أن نحدد بعض الأسباب التي أدت لهذه الظاهرة في التحليل، وإن كنا لمَّحْنا لبعضها أثناء الكلام، فمن تلك الأسباب:

– الأسلوبية لا تقدم منهجا متكاملا في التحليل، فهي تقوم على التنوع في الدراسات الأسلوبية، وما تفرعها من بعضها البعض، فأصبح من المتعذر ضبط دراسة واحدة تجمع بين عدة اتجاهات.

– هروب الأسلوبية عن المعيارية إلى التقريرية جعلها لا تعطي صورة نمطية موحدة في التحليل، لأنها لو كانت معيارية لأصدرت الأحكام وفق تلك القواعد المعيارية، وفي ذات الوقت تعتمد على غيرها من العلوم الأخرى في دراسة النص الأدبي.

– خضوع التحليل لذوق المحلل وثقافته النقدية وإمكاناته اللغوية والتحليلية وتمرنه الأسلوبي في تحليل النصوص، فيختلف الأمر من محلل لآخر؛ وبالتالي يتعدد التحليل وفق تعدد الدارسين.

– الاختلاف في المصطلحات الأسلوبية (الأسلوبية، الأسلوب، الانزياح ...الخ) أدى للاختلاف في التحليل.